ـمقدمة أولىـ

في العلاقات الجنسية بين البشر ما هو مألوف وطبيعي و ما هو غير مألوف ولا طبيعي ، ولكن النوعين من العلاقات موجودان ؛ الأول في العلن ووضح النهار ، لأنه ، على ما يبدو ، يشكل القاعدة ، والثاني في السر وعتمة الليل ، لأنه الاستثناء الذي لا يدعم القاعدة ، بل يشكل خطراً عليها ، بعكس كل الاستثناءات الأخرى ، ولهذا السبب هو نوع مطارد ومنبوذ، وفي أحسن الحالات ، نلوذ تجاهه بالصمت ، وكأن الكلمة قادرة على إيجاده فعلاً ، فنكتمها لنلغي ، بإلغائها ، واقعاً ملموساً لا نريد أن نراه ، وخوفنا من رؤيته والبحث فيه ، يوهمنا بأنه غير موجود ، فنؤخذ بلعبتنا ونخرجه ، سحرياً ، من بالنا ونطمئن إلى سلامة العلاقات بين البشر . وإن حصل أمامنا وأرغمنا على رؤيته ، قسمنا السلوك الإنساني إلى صحيح ومريض ورميناه في حيز المرض لأننا لا نقر بوجوده إلا إذا كان على هامش الحياة الطبيعية والسليمة ، يعني ، إلا إذا استطعنا أن نجد له مكاناً خارج اللعبة الجدية التي هي حياتنا.

ولكن السؤال هو لماذا الصمت ولماذا هذا الخوف من الكلمة ؟ وما هي هذه الآلية التي نلجأ إليها كلما أردنا أن نتهرب من مواجهة مسألة معينة ؟ هل إن كتمناها انتفت وإن نطقنا بها انوجدت ؟ هل صحيح إن في البدء كانت الكلمة ؟ ربما ! ولكن هل كلمة الله هي هي كلمة الإنسان كي يكون لها هذه القوة الفاعلة ؟ يكفي لله ، كما علمتنا الأديان ، أن يقول:"كن" كي ينوجد الشيء أو الإنسان . فهل يعتقد الإنسان أنه كما الله قادرٌ إذا قال هذه ال"كن" أن يوجِد ما هو غير موجود ، أو إن صمت عن موجود ، أن يحوله إلى لا وجود ؟ مسكين هذا الإنسان الذي يحاول أن يرتفع إلى مرتبة الألوهية وهو ، في ذالك ، لا يفعل إلا تقليد أسخف الحيوانات ؛ فالنعامة تلغي العالم من حولها حين تطمر رأسها في التراب . هذه الآلية تشبه ، إلى حد بعيد الآلية السحرية التي تكلم عنها " سارتر" في مواجهة الانفعال ، حيث أن الإنسان يلجأ إلى تغييب وعيه في حالات الانفعال الشديد كي يهرب من هذا الانفعال .

ـ مقدمة ثانيةـ

إن العقل البشري لا يستطيع أن يعمل ، في مواجهة واقع معين ، إلا إذا اعتمد آلية محددة . عليه أن يرتب وينظم الواقع كي يعقله بارتياح ؛ لا يبحث العقل ، إذاً ، في نشاطه العادي ،في الواقع كما هو في كل تعقيداته ، بل يشطره إلى شطرين أوليين، يضع أحدهما تحت عنوان الإيجاب بمعناه الشامل جداً ويضع الثاني تحت عنوان السلب ، وأيضاً بمعناه الشامل جداً ؛ فهناك الخير والشر ، وهناك الصحيح والمريض ... الطبيعي وغير الطبيعي مثلاً...وكل ما يندرج في خانة الخير أو الصحة أو الطبيعي ... يُسهب العقل في معالجته والكلام عنه ، بينما كل ما يندرج في الخانة الثانية ، يصمت عنه ، وإن واجهه ، اعتبره نقيض ما في الخانة الأولى واكتفى بوضع علامة السلب أمام تلك الخانة ،حتى يعتبر نفسه انه فهم أو وعى ،فعلاً طبيعته . ولهذا السبب ، وفي الحياة العادية للبشر ، يصبح الكلام عن هذه الموضوعات ، محدداً بالإشارة إليها من دون تسميتها . وفي العلاقات الجنسية ،أيضاً ، هناك ما يُسمى بالطبيعي ويُحكى عنه بشتى الطرق ، وما يُسمى بغير الطبيعي ،ويُكتفى بالإشارة إليه فقط وكأنه السلب المطلق الذي ل ايستحق حتى التسمية . ونلاحظ حين نسمع أحدهم يتكلم عن شا ذٍ جنسياً ، بمعنى اللوطي أو السحاقية أنه لا يلفظ هذين المفهومين بل يكتفي بالقول مثلاً :"إنه..." ولا يكمل جملته ،فقط يُعطي إشارة برأسه أو بيديه أو يقوم بأي حركة ،والسامع يفهم المقصود ، وكأن المتكلم والسامع متفقان بل متواطئان على فهم هذه الآلية المتكتمة.

وهنا في الكلام عن موضوع الجنس والعلاقات الجنسية ،لا بد لنا من العودة إلى التاريخ وإلى الواقع معاً ، يعني أن ننظر أفقياً وعمقياً كي يتكون لدينا نظرة شاملة وموضوعية عن هذه المسألة . والعلاقات الجنسية ككل العلاقات الأخرى لهل تاريخها وتطوراتها وتبدلاتها .

فماذا يقول لنا التاريخ ؟ وكما في كل دراسة تاريخية ،هناك الحدث وهناك الرأي حول الحدث ،والعقل يقول لنا إن لكل حدث سبب ، فسنحاول العودة إلى الحدث وأسبابه محاولين ،قدر المستطاع ، عدم إدخال الرأي والتقييم الخاصين بنا . ولكن هل هذا ممكن ؟